مصر تحمى الاسلام والمدنية

فى عين جالوت

للاستاذ محمد فريد أبو حديد

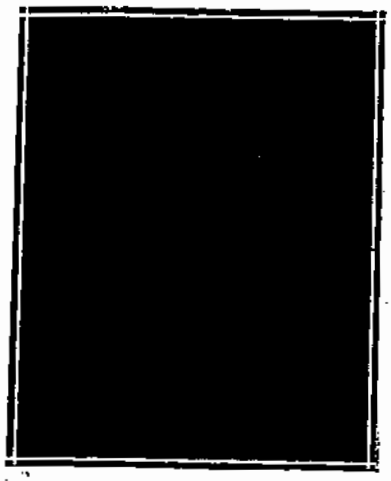

استهل القرن السابع الهجرى (وذلك فى أوائل القرن الثالث عشر الميلادى) وقد ترامى الى القاهرة نبأ النضال الدموى الذى ثار فى الشرق فيما بين نهرى سيحون وجيحون بين جنود التتار وبين جنود الملك محمد خوارزم شاه ؛ وكان المسلمون الى ذلك العهد لا يعرفون للتتار دولة ذات خطر ، فانهم انما كانوا يعرفون قوماً من البدو يعيشون فى فيافى الشرق التى تمتد الى أكناف الصين طالما حاربتهم جيوش المسلمين فلم يجدوا فى بلادهم مطمعاً ، اذ كان هؤلاء الحفاة كلما أوقع بهم جند الاسلام وقعة لاذوا بكبد الصحراء يضربون فيها ويمعدون فلا يجد قواد المسلمين لهم مدنا ولا ريفاً ، ولا يستطيعون أن يقبضوا منهم على ناصية . فاذا القرن السابع الهجرى يحمل معه اجتماعا عجيباً لهؤلاء التتار لم يسبق له مثيل الا فى أحوال نادرة ، اذ قد نبغ من بينهم الزعيم الداهية (تيموجين) الذى يعرفه التاريخ باسم (جنكيزخان) ، فوحد لهم دولة وأقام لهم ملكا بعد احداث يطول بنا وصفها لو تعرضنا لذكرها . وما كان لهذا الحدث أن يكون له ذلك الأثر البالغ فى تاريخ الاسلام والمدنية لولا ما لابسه من ظروف العصر وما كانت عليه حال الدولة الاسلامية المتاخمة للتتار . فلو كانت الدولة الأسلامية فى عصمة هارون أو المأمون ، أو لو كانت فى قيادة المعتصم أو المتوكل ، لما زاد الأمر على قيام دولة تترية تلمع حيناً كما يلمع الشهاب ثم يندثر ، فكانت

٦٥٤١

تجتمع لهم كلمة وينبسط لهم سلطان على من فى فيافى التركستان وما يليها من الكرج والديلم ، ثم تمضى تلك الدولة الناشئة بعد حين كأن لم تكن ، ويسدل عليها التاريخ ستاراً كثيفاً ، وتحجب ذكراها وراء الكثبان المترامية البعيدة

غير أن مجرى التاريخ فى هذه المرة قد اتجه اتجاهاً لا يزال ماثلا فى أذهان الانسانية ؛ وما زالت اصداء اجتماع التتار على زعامة جنكيز تتردد الى اليوم فى الأقطار جميعها شرقيها وغربيها ؛ ومازالت آثار ذلك العهد تنعب فوق أطلال بخارى وسمرقند ومرو ، بل ما زالت جاثمة فوق بغداد العظيمة يشهد العالم منها الى اليوم كيف يقوض التخريب أسس المدنية التليدة ، وكيف تذهب كنوز القرون ومخلفات الاجيال على يد الهمجية بين عشية وضحاها . وما اتخذ التاريخ ذلك المجرى الا لسبب واحد ، قد يبدو صغيرا ضئيلا لا خطر له . غير أن أجل حوادث التاريخ طالما نبعت من أمثال هذا السبب الصغير

كان الجزء الشرقى من العالم الاسلامى يئن من حكم طائفة من الأمراء قد وثبوا الى الحكم وهم أشبه شىء بقطاع الطرق يثبون على غنيمة آمنة فى قافلة عزلاء غريرة . وانك اذا تدبرت الأمر كله فى تاريخ الاسلام لم تجد نكبة أصابت المسلمين الا كانت آتية من مثل هؤلاء الأمراء المفسدين . تراهم وقد حكموا البلاد لكى يبتزوا ثروتها لا لكى يقوموا بواجب الحكم فيها ، وتراهم يبطشون بالناس بطش الأسد بالصيد لا يعاقبون أحداً لأنه أساء ، بل لأنه تنفس بكلمة حق ، أو فرج عن نفسه بأنة مصدور . وتراهم قد أحاطوا أنفسهم بشراذم من جنود مرتزقة ، لا هم لها الا أن تشترك فى الغنيمة ، فهى تساعد الطغيان على أن يطغى ، وتشترك معه بأن تستعلى فى الأرض وتطغى ، وهؤلاء الملوك وأولئك الجنود لا حد لاستعلائهم مادامت مسألة الحكم مقصورة على ضبط الرعية العزلاء ؛ فاذا ما جد الجد ، واحتاج الأمر الى الحماة كانوا أحرص الناس على الحياة ، وأخوفهم من التعرض لبلاء الجهاد ومحنة الجلاد

ولقد كان محمد شاه خوارزم أحد هؤلاء الطغاة المتكبرين الضعفاء . فلقد كان أشد الناس بطشاً وأحدهم شوكة فى سيرته

مع الأفراد والضعفاء ، وكان من أحرص الأمراء على الثروة والسلطان ما دام لا يمانع الا شعبه المسكين ، فقد سلط عليه طوائف أعوانه فكسروا أنوفه ، وخضدوا شوكته ، وأذلوا نفوسه ؛ وقد أراد القضاء أن يتعدى أذاه الى طائفة من تجار التتار كانوا قد جاءوا الى بلاده مسالمين فى تجارة فأوقع بهم ونهب متاعهم ،فاستجار هؤلاء بصاحبهم ، وكان عند ذلك (جنكيز) ، فرأى من واجبه أن ينصرهم ، فبدأ من ذلك الاصطدام الذى أعقب الدمار والبلاء ببلاد المسلمين

لم يشهد التاريخ مثل ذلك الصراع الذى بدأ عند ذاك بين التتار والمسلمين . فتيار أتى من جموع الهمج يصدم هيكل الدولة القديمة المبجلة ، فاذا بذلك الهيكل يتصدع عند اللمس وينهار بعد قليل . حتى أن التتار أنفسهم ترددوا حيناً ووقفوا مبهوتين لا يكادون يصدقون أنهم قد هدموا ذلك الهيكل الهائل ، ولكن الهيكل لم يكن سوى جدار أجوف قد نخره الظلم واستل منه الحياة

لم يثبت الأمراء الطغاة الا مقدار لطمة قصيرة المدة ثم عرفوا أنهم لا يستطيعون أن يرعبوا عدوهم كما كانوا يرعبون رعيتهم ، ولن يقدروا على تحطيمه كما كانوا يحطمون أهل بلادهم ، ومنذ تحققوا ذلك طارت نفوسهم خوفاً ، وغلب الحرص كل غرائزهم فقلبوا الفكر فى مصيرهم ، وعرضوا ما كان منهم وما يكون . أتذهب عنهم أموالهم ، ويضيع سلطانهم ، ويضطرون الى مقاساة الأهوال فى الدفاع والنضال ؟ أيقاسون اليوم رعيتهم ضيق الحياة وضنك العيش فى القتال ؟ أينزلون عن السعة والعزة والنعمة فى سبيل دفاع المستميت ؟ أيعدون أيديهم الى الرعية أن هلمى الى صف واحد نبذل فيه الحياة معا فنحيا كراما أو نموت وقد أعذرنا ؟ ثم جالت بخيالهم ذكريات ما سبق لهم أن أجرموا ، وما كان لهم فى الحكم من سيئات ، وعادوا الى أنفسهم يسائلونها : أيستطيعون اليوم أن يقفوا مع الرعية كتفا الى كتف ؟ وهل يجدون من أنفسهم الجرأة على أن يخاطبوها خطاب الأنداد الأكفاء ؟ أيستطيعون أن يستنهضوها لبذل المال والنفس فى سبيل الخلاص من العدو المخيف ؟ وهل يستطيعون أن يخيفوا الناس من عدوهم القبل وقد كانوا بالأمس لا يجندون الجنود الا لكى يحكموهم بالقسر والعسف ؟ جالت هذه الأفكار فى رؤوسهم وهم مترددون بين الثبات والانهزام ، وبين النضال والهرب فخذلتهم قلوبهم اذ رأوا أن الرعية التى آذوها بالأمس لن تجيب نداءهم لو نادوا ، ولن تخلص لهم اليوم بعد ما نالها من شرهم وطغيانهم ؛ ولئن أجابت الرعية وتناست كل ما كان ، أبقيت فيها بقية للنضال ؟ ان ظلم القرون اذا أفلح فى ازالة القلوب الحرة الأدبية التى تنفر من الظلم ؛ وتأبى الاستعباد ، فقد أفلح كذلك فى اماتة الرجولة والنخوة ، وأحال الناس الى أشباح مرتعدة خوارة لا تستطيع شيئا فى الدفاع ولا تغنى غناء فى النضال . فلن يستطيع شعب أذهب الطغيان إباءه وعصف بنخوته أن يصمد فى نضال البقاء فى الحياة

ولم يستطع محمد شاه خوارزم عند ذلك الا أن يعمد للهروب بما استطاع استخلاصه من أمواله وذخائره التى استلبها من دماء رعاياه وابتزها من عرق كدهم ، ودموع أعينهم ، ورجفة العراة منهم والجائعين ، وبقى الناس بعد أن هرب ذلك الطاغى وهم كالغنم المبعثرة اذا دهمتها الذئاب ، وقد هرب عنها الرعاة الجبناء . فلنسدل الستار عن نضال غير متعادل بين الشاة والذئب ، ولنغمض العين عن منظر شعب من شيوخ أهل علم ، وشبان أهل تجارة ، وكهول أهل صناعة ، ومن عمال فقراء لا يملكون ما يسدون به الرمق وزراع لا دراية لهم بشىء بعد المحراث والفأس ، وهم يخرجون ألوفا الى خارج المدن والقرى ، لا يدرون كيف يفعلون ، ولا أنى يتجهون ، فلا تكون الا ساعات حتى يحصدهم العدو حصداً ، أو يحصد بعضهم بعضا فى فزع حرب لاعهد لهم بها . لا بل إنهم كانوا يستسلمون كما يستسلم الدجاج ليذبح واحدة بعد واحدة ، وهى تستسلم للهلاك خوفا من رهبة الدفاع عن أنفسها

لقد سلبهم الطغاة ما كان فيهم من رجولة بالعسف المتواصل جيلاً بعد جيل ، وبالخنوع والاذلال يتوارثونه ابنا عن أب عن جد . ألا فليحمل الطغاة وزر هذه المخازى ، ولتلطخ ذكراهم باثم هذه المجازر لا براءة لأحد منهم منذ بدأ الحجاج جريمته فى تذليل الأمة الاسلامية لحكم الطغيان . وترامت أنباء هذه المجازر الى مصر فلم تجد من نفسها فراغاً الى أن تملأ آذانها بها اذ كانت

تناضل نضال الأبطال فى دفاع الصليبيين عن أرضها . اذ بينا كانت مذابح التتار تفتك بالمسلمين فيما بين نهرى سيحون وجيحون ، كان الصليبيون يفدون ألوفاً مؤلفة الى شواطئ مصر يريدون أن يرموا بفتحها قلب دولة الاسلام . وكان بمصر بقية الدولة الأيوبية ، فكان ملوكها يردون من ذلك الفتح موجة بعد موجة ، فالملك الكامل يدفع حملة دمياط الأولى ، والملك الصالح يقف لجيش فرنسا وحلفائها ويموت وهو فى ميدان الحرب فيخلفه ابنه الملك طوران شاه فيقضى على جيش لويس التاسع ، ويتم الفتح بأسر الملك الصليبى المتحمس . وهكذا علمت مصر دول أوربا أنها لن تكون هينة فى النضال اذا شاءوا نضالاً

ولما تنفست مصر من حملات الصليبيين راعها ما سمعت من دوى التخريب فى مدن الشرق ، وكان قد علا وصار مرعباً فظيعاً . وكان أعلى ذلك الدوى ما جاء من بغداد اذ فتح هولاكو عاصمة الخلافة وألحقها بالخراب الذى خلفه جده بين سيحون وجيحون ، وسمع من بمصر أن خزائن العلم وآثار المدنيـة فى دار السلام قد صارت كلها أثراً بعـد عين ، وأن دولة الاسلام العظيمة قد تحطمت وانهارت كأنها لم تكن من قبل ملاذ الحضارة والفن والعز منذ قرون . فاختلط فى نفسها الحزن على مجد الاسلام الضائع والخوف من أن ينالها من ذلك التيار المدمر ما نال سائر معاقل الاسلام

واندفع التيار المدمر بعد اجتياح بغـداد فسار فى سبيله الى الغرب حتى بلغ الشام ، وكانت قلاعها عند ذلك عواصم الحدود للدولة المصرية الكبرى التى ورثت دولة بنى أيوب وهى دولة الأتراك المماليك

وكان صدى أنباء تلك الغارة فى مصر غير صداها فى سائر الأقطار ، فان صوت التتار الذى أفزع العـالم الاسلامى فأخرجه عن رشده وأفقده ارادته وجعل أهله يستسلمون للموت لا يكادون يحركون يداً ، لم يزد على أنه أثار حفيظة أهل مصر ، وحملهم على الاستعداد للنضال . وذلك أن مصر لم تكن كسائر البلاد الاسلامية فانها لم تفقد كرامتها ولا رجولتها . ولم تنس معنى العزة والاباء . حقا لقد كان يحكمها أمراء من الترك ، وكان قبل ذلك يحكمها بنو أيوب والفاطميون وغيرهم ، ولكن هؤلاء لم يكونوا فى يوم من الأيام الا حكاما يقومون بخدمة الجماعة . ولم تزل مصر على توالى المحن عليها سيدة أمرها والمسيطرة على قانونها وحقوقها . ولو كان الأمر عنـد ذلك أمر جيش وسلطان لانتهى النضال على ما انتهى اليه نضال ملوك الشرق وجيوشهم ؛ فنضال مصر مع التتار كان نضال أمة بأسرها محسة بوجودها ، شاعرة بما يجب عليها أن تبذله وأن تدبره ؛ وان شئت مصـداق ذلك فها هو ذا وصف مجلس حربى اجتمع عند ذلك لينظر فى أمر التتار والاستعداد لملاقاتهم

كان فى ذلك المجلس ممثلو الشعب المصرى وأهل الرأى فيه من مشايخ العلماء وأئمة القانون . كما كان فيه كبار الامراء والحكام والأعيان . وكان سلطان الوقت شابا غرا جاهلا وهو على بن معز الدين أيبك . فتذاكر المجلس غارة العدو وما تحتاج اليه البلاد من وسائل الدفاع من مال وجند ، وما لا بد من بذله من مجهود جامع شامل ، فكان أول ما نظروا فيه أن تساءلوا : هل السلطان للبلاد أم هى البلاد التى للسلطان ؟ وهل يليق بنا فى مثل هذا الوقت أن نقيم شابا غراً جاهلاً يتصرف فى شـؤون الدولة لا لشىء الا لأنه ابن للسلطان الذى حكم من قبل ؟ ولم تطل بهم المناقشة فى ذلك فاختاروا رجلاً من أكبر قواد العصر فأقاموه سلطانا بدل ذلك الصبى الصغير ودلوا بذلك على أن نظر مصر انما هو لمصالح الدولة ، وانها انما تختار حكامها ليقوموا بواجبهم لها لا ليكونوا سادة متحكمين فيها . ثم نظروا بعد ذلك فيما يجب جمعه من المال للاستعداد للحرب ، فلنسمع الآن قول أحد مشايخ مصر وهو الشيخ عز الدين ابن عبد السلام لنعلم منه كيف كان يخاطب نواب المصريين قادة الحرب فى بلادهم ، وهل كانوا يرونهم سادة أم خداما : قام ذلك الشيخ الجليل عند ذلك فقال شيئا مثل هذا : « لقد جئتم أيها القواد والأمراء من بلادكم جنوداً صغاراً لا تملكون شيئاً ، بل كنتم مملوكين أرقاء . ولقد صارت لكم أموال وعقارات ، وأصبحت فى أيديكم النعم الجزيلة والخيول المطهمة ، والجواهر والحلى التى لا يستطاع تقدير قيمتها . فهلمو فابذلوا كل ما عندكم من تلك الأموال حتى اذا ما صرتم كالناس لا تملكون الا ما تملكه أوساطهم ، كان الواجب على الأمة أن تبذل كل ما تملك فى سبيل الجهاد من ورائكم . وليست العامة بمعزل عن الحرب

ولا هى مترددة فى خوض غماره . فهلموا ! اسألوا سهول فارسكور عن الألوف من أهل الريف الذين حاربوا الفرنج ، وأبلوا فى حربهم أحسن البلاء . وهلموا فنادوا أن النفير عام تجدوا الناس جميعا عند ندائكم مسارعين الى الجهاد والنضال »

ولقد انفض ذلك المجلس على اتفاق وثيق ، فخلع السلطان على ونودى بالسلطان الجديد : الملك المظفر قطز ، ونودى على الناس جميعا أن النفير عام الى الغزو فى سبيل الله

وهكذا كانت الحركة حركة مصر ، والجهـــاد جهادها لا جهاد أمرائها

وخرج السلطان بموكبه فى أواخر شعبان سنة ثمان وخمسين وستمائة ، وبلغ الشـام فى رمضان ونزل على جانب الأردن فى أواخر شهر الصيام

وكان الى جانب وهدة الأردن واد من الوديان الكثيرة التى تهبط من جبال فلسطين أو تلالها ، تخرج فيه عين من مرتفع لا يزيد علوه على مائتى متر وتسمى عين جالوت ، وذلك الوادى على مقربة من بيسان التى اشتهرت بابنها النجيب القاضى الفاضل عبد الرحيم البيسانى . وقد اجتمع جند مصر عند ذلك الوادى ، آتيا من علايات فلسطين . وكان جند التتار قد توافوا فى وهدته آتين من دمشق بعد أن جروا عليها ذيل تخريبهم وتدميرهم

وجال التتار فى السهل وهم يتضاحكون ويمرحون ، ينظرون الى جنـود مصر بلباسهم الزاهى ، وسلاحهم الثمين ، وحليتهم الرائعة ، ولعلهم كانوا اذ ذاك يقول بعضهم لبعض : ها هى ذى غنيمة لم يسبق لنا عهد بمثلها ، ولا عجب فهى كنوز مصر

واجتمع جنـد مصر من أتراك وعرب ، وبرزوا على عادتهم صفوفا من الفرسان لا تكاد ترى فيها ميلا ولا عوجا ، كل فارس منهم على فرسه كالجبل الراسى اذا تحرك ، فكأنما ارادة واحدة تتحرك ، فالفرسان اذا تحركت فهى خيل مقبلة ، والخيل اذا أقبلت فهى فرسان مهاجمة ، وانتظم السلك فاذا الجيش سلسلة تطوق جوانب الوادى ، أعلاها نحاس براق وحديد صقيل ، وأسفلها حوافر الخيل المتوثبة تضرب الأرض وهى قلقة الى النضال ؛ ثم دقت الكؤوس ، وأمر القائد بالهجوم ، فاذا بهذه السلسلة المستوية تنحدر الى الوادى صاخبة داوية راعدة ، ولكنها مع ذلك متماسكة مستوية حتى بلغت الجانب الآخر من الوادى ، وكانت جموع التتار عنده تنتظر الهجوم لتجد عنده النصر الذى اعتادته فى مصافها ؛ واهتزت صفوف السلسلة المستوية عند الاصطدام كما تهتز الاسطوانة الطاحنة اذا صدمها حجر صلد ؛ غير أنها لم تقف وأبطأ سيرها وخفت جريتها ؛ ولكنها لم تنشعب ولم ترتد

وعلت قعقعة الحديد ، واختلطت ضجة الأصوات ، وارتمى البعض عن البعض ، وتدحرجت الأجزاء عن الأجزاء

وكانت ساعة تشيب لهولها الولدان ؛ ثم ازدادت سرعة السلسلة كأنها قد اجتاحت العقبة التى عاقت سبيلها ؛ واندفع جيش مصر مرة أخرى وراء فلول منهزمة من التتار تجرى فزعة فى غير نظام نحو بيسان فى أسفل الوادى

فلقد حطمت الجيوش المصرية جموع التتار المخيفة لأول مرة فى تاريخها منذ خرجت على العالم تذيقه العذاب والوبال ؛ وكانت وقفة مصر فى عين جالوت حماية للاسلام والمدنية والانسانية

محمد فريد أبو حديد